بنت الصعيدة

للقصصية البريطانية مارى بيلوك

كانت القارة ملأى بصفوف الجند تمتد فى طولها وعرضها كأنما تزحف إلى غير نهاية وكانت تتجلى قسوة العصر وآثامه فى تلك الخطوط البشرية التى تدفع ذات اليمين وذات الشمال كأنها سلع نافهة . وكان ذلك الإعصار الدامى يمزق فى أوربا عرى كان يظن الا انفصام لها

«أماه !» بهذا النداء كان يرتفع صوت الصغيرة الضالة فيذهب بددا فى كآبة الليل وظلمته ...

وبينما كان أحد رجال الشرطة يجر رجليه جرا إلى داره مثقل البدن والنفس بالنصب والهم ، إذ وقعت عيناه فجأة على بنية تبكى فى زاوية الطريق ؛ ولم تجد حيلة فى حملها على الكلام ، ولم ينفعه شيئا ما أبداه نحوها من تلطف وعطف

وحار من أحاطوا فى المخفر بتلك الصغيرة ماذا يفعلون كى تتكلم ، وهى تنظر إليهم فزعة تجهش بإجهاشات تهتز لها حتى قلوبهم التى اعتادت مناظر القسوة

وأخيرا أجابت وهى تمسح دموعها بيديها وتفتح وجوههم خائفة « إسمى إلفريدى شنيدر وعمرى ست سنوات »

ويمد لها مدير المخفر منديلا حلقا وهو يسألها « ومن أبواك يا صغيرتى العزيزة ؟ »

وتقول الصغيرة « لست أدرى ... حقا لست أدرى »

ويصاح بها قائلا « بنت كبيرة مثلك لا تعرف من أبواها ؟ ... هذا كلام فارغ »

وتهز البنية كتفيها يائسة ، وينظر إليها المدير يائسا كذلك ؛ ثم تملى عليه تجاربه أن ليس أفضل لها من أن تنام

ويبسط رجال البوليس بأيديهم الغليظة القبيحة فراشا للصغيرة الباكية فترتمى عليه ولا تزال تجهش حتى يلفها النوم

وفى الصباح الباكر يقبل على فراش الصغيرة مدير البوليس الذى وخط الشيب رأسه وقد عول على المفاجأة وسيلة إلى غرضه ، وينظر إلى الصغيرة إذ تفتح عينيها

وتطرف ، قائلا وقد تكلف من الصرامة والعبوس ما أشعره أنها أكثر من طبيعته « أنت إلفريدى شنيدر فقولى أين تسكنين ؟ »

وتجيب الطفلة فى غير تردد « رقم ٣٦ شارع موبيلجاس » ثم تنظر حولها حائرة. لم تدرك بعد أين هى . وقال مدير البوليس وهو يفرك يديه فى ارتياح « حسن! هاأنت ذى معرفين ، فهل يقطن أبواك أيضا هناك؟ »

وأجابت الطفلة وقد أفاقت « أوه ... لا ، من فضلك ، لا يقيم هناك أبواى ، ولست أعرف أين هما وماذا حدث لهما ... إنه وحده يقطن هناك ... فرانز شنيدر وحده »

وسألها الرجل متعجبا « أليس هو أباك؟ »

وهتفت الطفلة « نعم ... لا ... إنه ليس أبى » ثم عادت الدموع تنسكب من عينيها ، وقد اختنقت بالبكاء ، فما كان لها نيرة حزن لن يصفها كلام

وعرض رجل البوليس الذى وجدها بالأمس أن يذهب بها إلى ذلك المكان ، فأجابه رئيسه بقوله: « إن الساعة لم تتجاوز السابعة بعد . وها هو ذا فرانز فيها أظن قادما يبحث عنها فإنى أسمع نساؤلا »

وفتح الباب ودخل الحجرة رجل فى وجهه لهفة شديدة ، ولكن ما تكاد تقع عيناه على الطفلة حتى تفرج أساريره . وتجرى الصغيرة فتتعلق به باكية ، وهو يصيح « بلى ! ها أنت ذى بين يدى » ثم يضمها إلى صدره ، ويتجلد رجال البوليس كيما يحافظوا على ما يبقى لهم من ثبات وقوة ، ثم يقول المدير « هكذا تصر هذه البنت العنيدة على زعمها أنها لا تعرف أبويها » ويقول ذلك الرجل الذى يهدهدها بيديه « حقا إنها لا تعرفهما ولا تدرى أين هما ؛ بل إنها لم تكن تعرف ما أسماؤها هى حتى أمس فحسب »

كان فرانز شنيدر قد عاد من الميدان فى إجازة قصيرة سنة ١٩٤٤ ، وكانت قد ولدت له طفلة ، ولم يستمتع بطفلته إلا ساعتين ثم دعاه داعى الواجب فعاد إلى القتال

وعصفت العاصفة ، فكم فصمت من عرى وثيقة ، وكم شتتت من شمل جميع ! وأسر فرانز شنيدر ثم أطلق سراحه بعد عام . وأخذ الرجل يبحث عن زوجه وابنته ، فلم يدع سبيلا إلا سلكها ، ولا مكتبا للاستعلامات إلا طرقه ، حتى كلت قدماه . وكان يقرأ فى لهفة ما يعلن فى الصحف من أسماء المشردين ، ويستمع إلى الإذاعة وقلبه يثب فى صدره ، ولكنه لم يرجع من ذلك بطائل وأحاط به اليأس ، وكره الحياة

ثم واتته السعادة فجأة ذات يوم فى صورة طفلة تدعى إلفريدى شنيدر ، وجدت ضالة فى إحدى محطات سكك الحديد ، وكان حول عنقها قلادة تحمل اسمها . وراح الرجل

يضم ابنته إلى صدره ، وملء جوانحه الفرح ، وملء عينيه الدموع ، وعبثا حاول أن يعرف منها أين أمها ؛ وكان لا يظفر منها كلما سألها إلا بكلمتين « كانت أمي مريضة ثم تركتني ولم أعد أراها »

وآثر الرجل ألا يسألها بعد ذلك ، فإن ما كان يرتسم على وجهها الصغير من رعب كلما سألها كان يشيع في نفسه الألم والرهبة ؛ وإنه يجب أن تحيا ابنته حياة سعيدة ، وأن تنسى ماضيها الحزين المؤلم كل النسيان

وانقضى عامان كانت فيهما إلى الصغيرة عزاء فراز عن زوجته التي لا يدري أحية هي أم ميتة . وكانت تؤنس ابنته وحشته ، وكان يرى فيها أمله ورجاءه في أن يحيا .

وكان أمس عيد ميلادها الخامس : وقد اشترى لها أبوها من ألوان الحلوى ومن أشكال اللعب ما أبهج نفسها . ولشد ما ابتهجت بعروسها التي انفض عنها وتفتحها والرجل فرح بفرحة ابنته . ولقد قضى أكثر نهاره معها في حديقة الحيوان وفي المساء أخذ يريها بالأزهار والورق الجميل الألوان

وفي مساء عيدها وبهجتها أبى القدر إلا أن تذوق الصغيرة من الحزن ما لن تنساه أبدا وإن دامت أطول العمر

بينما كان الرجل وابنته يتناولان عشاءهما في حجرة الطعام إذ دق جرس الباب ، ففتحت إلى فإذا بها حيال سيدة لا تعرفها وكانت معها بنت صغيرة . وسألت السيدة « أيقيم هنا السيد فرانز شنيدر ؟ » : ولما أومأت إلى بالإيجاب ، دخلت السيدة ، ومشت إلى حجرة الطعام فدقت الباب ، ودخلت ، وتركت الباب مفتوحا فاستطاعت إلى أن أرى ما كان بينها وبين أبيها

وصاحت السيدة قائلة « فرانز ! » وألقت بنفسها على صدره باكية ، بينما كان ينهض الرجل وقد شملته دهشة عظيمة ؛ وصاح بزوجها قائلا « ماري ؟ أشكر الله ! ها أنت ذي حية » ثم نادى الرجل قائلا « إلى »

وكان هذا النداء موجها لا إلى الواقفة خارج الحجرة ، ولكنها لم تتحرك ، كأنما صاحت في الأرض قدماها . لم تستطع إلى أن تقدم حين رأت البنت الصغيرة الغريبة تتدلى من عنق أبيها وهو يقبلها مرتعدا من فرط سروره ثم يضمها إلى صدره

واستدارت إلى الواقفة خارج الحجرة وألصقت إلى الحائط وبكت وصمت ، ولم تتبين بعد حتى وجه اليقين ماذا يعني هذا الذي ترى

والتفتت السيدة إلى اللعب المتناثرة ، وإلى الزهر والحلوى وقالت لزوجها : « هكذا أمضيت عيد ميلاد ابنتك . ما أجمل ذلك منك » ثم التفتت إلى ابنتها قائلة : « انظري يا إلى ! إن هذه الهدايا كلها لك »

وراحت السيدة ترى ابنتها تلك الهدايا التي

أغدقها زوجها على إلى الأخرى التى لم تكن تعرف السيدة بعد شيئا عنها

عندئذ أدركت الطفلة كل شئ ، فهذه السيدة زوجته ، وهذه الصغيرة التى تدعى إلى كذلك ابنته الحقيقية.. أما هى فلم تكن إلا غلطة فحسب !

وأحست الصغيرة فقد أبيها كما أحست فقد أمها ، ونظرت إلى ذلك الرجل الذى كان أباها منذ لحظات ، ومشت فى جسدها رعدة شديدة ، وشعرت بثقل الغربة فى البيت كله وجرت إلى المطبخ وقبعت فى ركن منه

ونهض الرجل فجاء بها بكفكف دموعها وقدمها إلى زوجته وابنته ؛ ولم يكن يعلم منذ لحظات أن لا رابطة تربطه بهذه اليتيمة البائسة

وجلست إلى الغريبة صامتة دامعة تنظر من خلال دموعها إلى إلى صاحبة البيت واللعب والزهر والحلوى ؛ ولبثت فى مكانها تستمع إلى ما كانت تقصه تلك الأم من أنباء عذابها وحزنها أيام كانت هى وابنتها شريدتين ، تعبث بهما يد القدر .

وانتفضت الصغيرة فى رعب ، وقد أوحى لها ما تسمع عذاب أمها وأبيها

وكانت نظرات الصغيرة الحزينة نظرات الشكر والمحبة إلى ذلك الذى كان أباها منذ لحظات وكانت فى حرمانها تستشعر الراحة — كما تفطن الرجل حين نظر إليها — لما كانت ترى من سعادته بلقاء زوجته وابنته ...

ولما أووا إلى مضاجعهم جميعا رأتها إلى وقد زلت من سريرها ، ومشت نحو العروس التى لم تعد لها ، وربتت بكفها الصغيرة على صدر العروس ومسحت شعرها فى رفق ، ثم تسللت فى سكون إلى خارج المنزل !

ولم تدر أين تذهب ، وراحت تتنقل من شارع إلى شارع حتى أضناها الجهد . ولما حنى عليها الليل وأخافتها الظلمة أخذت تصيح « أماه ! » حتى وقع عليها رجل البوليس فأخذها إلى المخفر . وهناك كانت إلغريدى سيدر عاجزة عن أن تذكر من أبواها

وكان مدير البوليس ورفقاؤه يستمعون فى صمت وعكر إلى الرجل وهو يقص عليهم قصة الصغيرة الضالة . ولقد كان يضمها أثناء حديثه إلى صدره ، وكانت يداها الصغيرتان فى قبضته ؛ ولما فرغ خاطبها قائلا « والآن ياصغيرتى العزيزة هيا بنا إلى المنزل فإن أماك قد أعدت طعام الفطور ، ولا بد أن أختك قد استيقظت الساعة »

وقال مدير البوليس : « هذا جميل منك ياسيد سيدر » ثم جهد فى تخليص حنجرته ، وأمسك دمعة فى جفنه فليس مما يليق برجل فى مثل سنه أن يظهر بمظهر لا يكون مخفر البوليس محالا له على أى حال